١١ — صور ذكرياتي في بلاد النوبة :

أصبع الانجليز في النوبة

للأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

قد يثير هذا العنوان العجب والدهشة في بعض النفوس التي لا تعرف شيئاً عن منطقة النوبة ، وربما يدفع بعضها إلى التساؤل اللج : وما صلة الانجليز ببلاد النوبة ؟ وأين مكان هذا الإصبع في تلك البلاد التي ليس فيها موضع لأجنبي ؟!

والواقع أن الغفلة مستولية على عقول كثير من ساستنا الذين لا ينظرون إلا إلى مواقع أقدامهم ، ولا يجشمون أنفسهم عناء التفكير فيما هو أبعد من ذلك ، ولا مشقة اليقظة والانتباه لما يراد بوادي النيل كله ، وما يكون دائماً وراء الأنباء الذائعة ، والأخبار الطائرة ، ولا يعرفه في الغالب كثير من الناس :

غفل بعض الساسة المصريين عن واجبهم الوطني ، حينما جعلوا من بعض بلادهم ، وأعني منطقة النوبة منفى للموظفين ، واحكموا عقد هذه العقدة النفسية الأليمة ، حتى أن الموظف ليتولاه العجب العاجب حينما ينزل بهذه البلاد ، فلا يرى بها جديداً في أية ناحية من النواحي ، وأن كل شر سمع به لا أثر له على الإطلاق ، وربما يجد العكس ، كشهرة هذه المنطقة بالحشرات السامة ، والأفاعي القاتلة ... و ... و ... مما لم نجد فيه خلاف ما نعرف في مختلف بلدان القطر ، بل في كثير من بلاد الريف ما هو أجدر بحمل هذه الشهرة ، وأولى بذيوع هذا الصيت عنه ؟ ! ومما زاد الطين بلة ، أن كثيراً من أولي الأمر يهملون شأن هذه المنطقة سنوات فتظل مشروعاتها مهملة ، في زوايا النسيان ، مما كان له أكبر الأثر في كراهية الناس لهذه المنطقة التي تعتبر من أهم المناطق المصرية الكبيرة .

وإذا كانت السياسة البريطانية قد نجحت في شيء ، فإن نجاحها في تعمد إهمال منطقة النوبة ، وحمل الحكومات المصرية على هذا الإهمال — فاق كل نجاح — إهمالاً جعلها كمنطقة طبيعية خامدة خاملة ، لا حياة فيها ولا حركة ولا نشاط ، حتى ليعتقد المار بها في طريقة من مصر إلى السودان ، أو العكس ، أنه منطقة قبور ، يدفن فيها الأحياء بدل أن يدفن الأموات ، وكم من موت خير من حياة كلها الجدب والألم ، والشقاء المر ، والعناء المميت ، وأنها فاصل طبيعي بين السودان ومصر ! .

وكأنما أرادت السياسة البريطانية بذلك أن تلقي في روع كل مشاهد لهذه المنطقة هذا الشعور الباطني العجيب ، وأن تتخذ من هذا دليلا على الفصل بين شقي الوادي ، جنوبه وشماله ، مصره وسودانه وأن تجعل ذلك حجة لها على تحقيق ما تبغي ، وإنقاذ ما تريد ، وهي دائماً تبني آمالها وأمانيها الكواذب على الخواء ، وتنسج العنكبوت ثم تمضي في طريقها الفاسد لتجعل من الظلم عدلا ، ومن الباطل حقاً ، ومن الوهم واقعاً محسوساً ، ولكن هذا وإن جاز في شريعة الماضي ، وقد سيطرت الغفلة على العقول ، ورانت على القلوب ، فلن يجوز في شريعة القرن الحاضر ، وقد انتبهت الأذهان ، وتفتحت العيون ، واستيقظت القلوب ، ونضج الوعي القومي ، حتى أصبح الابن يشارك أباه في السياسة ، ويعاونه على أداء الواجب ، ويتقدمه إذا دعا الداعي إلى ميدان الجهاد والنضال لا يعرف الوهن والضعف إلى نفسه سبيلا ، وهو بما يلاقي من الهول والشدة ، والحبس والتشريد ، جد سعيد وفخور ! .

منجمي المأمون) أقول ولوح ابن سينا في إشاراته ونصير الدين الطوسي وفخر الدين الرازي في شرحيهما لها . وكان هؤلاء يعبرون عن الجاذبية بين الكواكب بالشوق .

قال الإمام فخر الدين الرازي في شرحه :

وأما الشيخ (ابن سينا) فقد جزم ها هنا (في الإشارات) بأنه لابد وأن يكون لكل واحد منها (أي للكرات في الأفلاك) محرك خاص، لأن المتحرك بالاستدارة إذا ثبت أن حركته ليست إلا شوقية تشبهية ، وجب أن يكون الحال في كل الكرات كذلك . وأما قوله وتعلم أنه ليس يجوز أن يقال السائل منها معشوقه الخاص هو ما فوقه ، فمعناه ما تبين قبل ذلك من أنه لا يجوز أن يكون معشوق الكرة السافلة في حركتها الكرة العالية الخ ..

ضياء الرفيلي

ولئن غفل هذا الفريق المصري عن نيات هذه الدولة المجوز لشمطاء ، اللعوب ، ذات الناب الأزرق الاستعماري ، الأصيل ن المنكر والدس ، والخداع والرياء ، فلقد فهم الشعب على بكرة بيه الآن حقيقة الموقف ، وأدرك ما يراد به ، وما يساق إليه ...

وفي بلاد النوبة مشروعات كثيرة نفذت بالفعل وآتت ثمارها طيب ما تكون ، وكان لها في نفوس النوبيين جميعاً أجمل الأثر وهناك مشروعات كثيرة تنتظر التنفيذ والعقيدة السائدة أن كل شروع يكون نصيبه الإهمال والنسيان، لابد وأن يكون للانجليز إصبع في وقفه وإهماله ، لأنهم لا يريدون رفاهية هذه البلاد ، ولا خيرها ، لأنهم آخر من يستفيدون منها ، ولأن القلب النوبي يكره الانجليز كراهية تملك عليه نفسه من جميع نواحيها ، ويدرك تمام الإدراك أن الانجليزي عدو بلاده رقم(١) وأنه خطر ليس بعده خطر ، وأنه شر في كل مكان يحل به ، والسر في ذلك يجهله كثير من المصريين ، والقليلون يعلمون أن الانجليز في وقت ما ، حينما اشتدت بالنوبيين الأزمات ، وضاقت بهم سبل العيش ، بسبب التعلية الأخيرة ... انتهز هؤلاء الانجليز الأوغاد ، عن طريق أذنابهم — الفرصة ، وحاولوا اجتذاب قلوب النوبيين إليهم ، وربطهم بعجلة الامبراطورية بحجة صلتهم الوثيقة بأهل السودان ، فإن مديرية دنقلة بأسرها تعتبر منطقة نوبية صحيحة من قديم الزمان ، ولعب الذهب ، وأعشى بريقه العيون،وامتدت الآمال والأماني الخوالب ، ولكن قلوب النوبيين لم تتحرك لهذا البريق ، وعيونهم لم يعشها هذا اللمعان ، وكان الجواب المفحم أنهم حراس النيل من فوق هذه القمم الشوامخ ، التي تشبه عزة نفوسهم ، ونبل أخلاقهم ، على الرغم من ضيق ذات اليد ، والبيت على الطوى في أغلب الأحيان .

وتلقى الإنجليز هذا الدرس القاسي ، وعلموا أن الذهب ليس هو كل شيء ، وإن سياستهم لم يكتب لها النجاح على طول الخط ولهذا أدركوا وطنية هؤلاء ... الوطنية الحقة ، التي لا يتم عنها كلام منمق ممسول ، ولاعبارات خلابة ، ولا أحاديث مستفيضة ولا خطب حماسية ، ولا مقالات تفيض بها أنهار الصحف والمجلات ، وإنما هو شيء أسمى من هذا وأجل ، هو العمل والصبر والجلد ، والإخلاص ، وحب مصر والمصريين ، واحترام القانون إلى حد يثير الدهشة والعجب ، ويكفي أنه قد ينقضي العام بأسره دون أن تقع جناية في بلاد النوبة كلها على الرغم من امتدادها خمسين وثلاثمائة كيلو متر « فأين تجد هذه الوطنية الصادقة ، والهدوء الجميل ؟!

لقد كان الإنجليز يريدون النوبيين على تشجيع الحركة الانفصالية عن مصر ، التي أعلنت أسرهم ، ونسيتهم في قفارهم وصحاريهم » وبذل الانجليز الوعود الخلابة لإحالة منطقة النوبة إلى جنة تجري من تحتها الأنهار ، وأنفاذ جميع المشروعات الممكنة وغير الممكنة لتكون هذه البلاد حافلة بالثمار الناضجة ، والزهور اليانعة . يتدفق على أهلها الخير من كل حدب وصوب ، ولكنهم بحمد الله باءوا بالفشل ، وكان نصيبهم الخذلان الأليم ... ومن عجب أن أمر هذه المحاولة لم يكتب له الفضيحة كما يجب . وإنما ظل سراً لا يعرفه إلا القليلون من المصريين ، لأن النوبيين لا يرون فيما فعلوا حكومة يستحقون عليها المدح أو الثناء ، بل هو الواجب الذي لا شكر عليه .

ومما يؤسف له أن كثيراً من الأخطاء تقع كل عام في الوزارات ... الأخطاء الوطنية التي يحزن لها قلب الغيور ... فمن ذلك ما حدث معنا عام ١٩٤٦ بخصوص استمارات السفر إلى عنيبة ، وجهل الموظف المختص بأمر هذه الاستمارات ، وهل تكون من حق موظف عنيبة أم لا ، وطال الأخذ والرد بيننا ، وأخيراً صرف لنا استمارات إلى الشلال فحسب ، لأنه يعتقد أن الشلال نهاية اقتصاصه ، وأننا ملزمون أن نأخذ الاستمارات الباقية من منطقة قنا التعليمية ، إذا كان في وسعها هي الأخرى أن تصرف استمارات أبعد من الشلال .

وإذا اغتفرنا لهذا الموظف هذه الغلطة ، فهل نغتفر لموظف آخر بالوزارة نفسها غلطة أفظع وأعنف ؟ لقد ذهب أحد الزملاء بعد تعيينه إلى وزارة المعارف ليأخذ استمارات سفره إلى عنيبة أيضاً ، وما كان أشد عجبه عند ما فاجأه الموظف المختص بطلب تقديم ترخيص للموافقة عليه من الجهات المختصة في مصلحة الحدود . فقال : لماذا ؟ فأجاب الموظف : لأن عنيبة خارج الحدود المصرية ، فلا بد من جواز السفر إليها ؟!

وبهت الزميل ، وحاول أن يفهم الموظف حقيقة الأمر ، وأن